The religious identity in tradition of Al-Jahiz Jews and Christians as modal (study in light of the cultural criticism)

- Associate Professor Ahmed Hayawi Alsaad
University of Basrah
College of Arts
E-mail:dr.ahmedalsaad@yahoo.Com

- Assistant Professor Mariam Abdul nabby Abdul Majeed
University of Basrah
Basrah & Arab Gulf studies
E-mail: rakotaje@yahoo.com

Abstract:

In tradition of Al-Jahiz appeared many identities which he adopted to show their contexts as well as their manifestations in the reality and the collective imagination for the people in the third century AH. For the religious identity, it was a special discourse in his books which undertook to introduce both Muslims and non-Muslims such as Jews, Christians and the Magi.

For Jews and Christians, he described them, in distorted image by defined by real and false attributes. So their identity appeared to be deficient which appears as original value in the believers of those two religions morally and ethically through stories which mostly include humiliation and contempt as patterns culturally oriented contexts of marginalization for the others by evoking semantic components which sometimes

lack the historical precision to strengthen this framework and discoursed oriented.

Key word: Manifestations, identity Al-Jahiz

الهُوِيَّة الدينية في تراث الجاحظ
اليهود والنصارى أُنموذجا
(دراسة في ضوء النقد الثقافي)(*)

أ٠د٠ أحمد حياوي السعد
جامعة البصرة
كلية الآداب
E-mail: dr.ahmedalsaad@yahoo.Com

الباحثة: أ.م. مريم عبدالنبي عبدالمجيد
جامعة البصرة
مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: rakotaje@yahoo.com

الملخص:

تبدَّت في تراث الجاحظ الكثير من الهُوِيات، التي تبنَّى بيان ملامحها وسياقات تجلِّيها في الواقع أو المخيال الجمعي حتى عصره في القرن الثالث الهجري، وكان للهُوية الدينية خطاب خاص في كتاباته، التي التزمت التعريف بالمسلمين وغيرهم من أتباع الديانات السابقة للإسلام كاليهود والنصارى والمجوس.

أما اليهود والنصارى فقد تجلى ذكرهم في صورة متدنية _ غالبا _ تحدّها سمات حقيقية عُرفُوا بها وأُخرى زائفة، وتبدت هُويتهم في خطاب الجاحظ مُنَّسمة بالنقص الذي تمظهر بوصفه قيمة أصيلة لأتباع هاتين الديانتين خَلْقيا وخُلُقيا، عبر مرويات مُؤطرة بالتحقير والتبخيس في الغالب توجه سياق النفي المُمنهج سُلطويا وثقافيا للآخر، باستدعاء مكونات دلالية تنقصها الدقة التاريخية أحيانا لتدعيم هذا الإطار وتوجيهه خطابيا .

الكلمات المفتاحية : تمثلات ، الهوية ، الجاحظ.

(*) بحث مستل من أطروحة الدكتوراه الموسومة:((**تمثلات الهوية في تراث الجاحظ دراسة في ضوء النقد الثقافي**))

مقدمة:

الدين إيمان عميق بوجود ذات مقدسة والخضوع لها رغبة ورهبة، فالدين الديانة اسم لجميع مايُعبد به الله والملّة والاعتقاد بالجَنَان والعمل بالجوارح، والله l هو مالك يوم الدّين، بوصفه مبتدأ القيامة والجزاء على الأعمال والحساب لها إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، وقد ورد في الحديث النبوي أن الدين النصيحة، والدين: الجزاء، والطاعة، والحال، والعادة، والشأن، فتقول العرب مازال ذلك ديني وديدني أي عادتي، كما أن الدين إحساس، إحساس بالاتصال بين الأنا وقوة خفية تتحكم بالكون وماينجم عن ذلك من شعور، ووجود الإنسان لايستقيم بدون الدين والعبادة، فهو المعنى الذي خُلق لأجله، حيث يقول الله U [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] [لذاريات، ٥٦].

وقد صنّف الجاحظ كتباً كثيرة في موضوعات دينية متنوعة فُقدت أصولها، ولم يصل إلاّ إشارات عنها في الكتب والمخطوطات منها: الأصنام، والرد على الجهمية في الإدراك، وفضيلة المعتزلة، وآي القرآن، وإحالة القدرة على الظلم، والاستطاعة وخلق الأفعال، وحكاية أصناف قول الزيدية، والدلالة على أن الإمامة فرض، وأديان العرب، وتحدث الجاحظ عن كثير من الأخلاق والقيم والشعائر الإيمانية، وأشاد بالكثير من الشخصيات والرموز الدينية، وفسّر العديد من آيات القرآن، كما سَخَر من بعض الخرافات والأباطيل المرتبطة بالدين، إلاّ أن الهوية الدينية في تراثه تبدّت مشوبة بالنفي والاستهجان مع المختلف معه عقائدياً من المسلمين وغير المسلمين في كثير من الأحيان.

ولقد تعصّب الجاحظ للمعتزلة _ بوصفه إماما من أئمتهم _ واعتبرهم أصل الحق ومنهج الدين القويم، أما الآخر فعدّه ضالاّ، بل كافراً في الغالب، فقد رمى الجاحظ بالكفر الصريح أغلب المختلف معهم عقائدياً، وازدرى المختلف معهم دينياً، متخذاً من الجدل الكلامي وسيلة للإلغاء الفكري.

وكان موقف الجاحظ من اليهود والنصارى والمجوس دينياً يرجع إلى أصول، ويستتبع تداعيات تمثّلت فيه الهُوية الدينية عبر سياق يشفّ عن تمركز على الذات النقية، بالتضاد مع الآخر الخاطئ بالضرورة.

ويمكن استجلاء هوية اليهود والنصارى في مرويات الجاحظ كأنموذج لهذا المعنى عبر الآتي:

اليهود والنصارى في تراث الجاحظ:

يسُمّى اليهود والنصارى والمجوس الذين يعيشون في دار الإسلام بأهل الذمة، لأنهم يحصلون على عهد الأمان من المسلمين ويكونون في ذمتهم في مقابل دفع الجِزْية[١]، وقد عُرفت الجزية عند الأمم قبل الإسلام، وقد وُضعت في أثينا حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وفرضها الرومان، والفُرس[٢]، أما في الإسلام فقد شُرعت في السنة التاسعة من الهجرة بعد فتح مكة، بوصفها بدلاً عن حماية أتباع الأديان

السابقة ولمساكنتهم المسلمين والانتفاع معهم بمرافق الدولة العامة، ومن هنا كان الدفاع عنهم مقصوداً بعهد الذمة في الإسلام، فهي ليست بدلاً عن قتلهم بسبب بقائهم على دينهم، ولاهي بدلاً عن حقن دمهم وسكنى دار الإسلام كما يدعي البعض(٣).

وأهل الذمة على وفق هذا المبدأ أصبحوا يشاركون المسلمين فيما لهم من حقوق وواجبات مدنية مع بقائهم على ديانتهم وطقوسهم التعبديّة الخاصة، وتبدّت أروع صور التعايش السلمي بين المسلمين وبينهم في صدر الإسلام في كنف رسول الله r، أما بعد ذلك فـ ((إذا كان يحق للمسلمين أن يفتخروا بأنهم لم يُكرهوا اليهود والنصارى، وحتى المجوس والصابئة وغيرهم من الذين كانوا يعيشون في البلاد التي فتحها المسلمون ويُمثلون فيها أغلبية السكان على الدخول في الإسلام ... فإنهم مارسوا بالتأكيد سياسة المَيْز، بدرجات متفاوتة حسب الأوضاع، تجاه المؤمنين بالديانات الأخرى، وكانوا ينظرون إليهم نظرة استعلاء مشوب بالاحتقار))(٤).

أما الجاحظ فقد استهدف أهل الذمّة بمرويات تبنّتْ إنتاج أنموذج يضمّ بنية قيمية تستدعي وعياً ذهنياً يهدف إلى نبذهم جميعاً بلا استثناء، عبر سياق التزم استهجانهم وإهانة كرامتهم وإنسانيتهم، متمركزاً على أصول تشكّلت من مزيج مموّه لصفات حقيقية وأخرى زائفة، فأسّس لهم هوية سالبة جوهرها النقص الذي تبدّى مكوناً أصيلا من مكونات شخصية الذِّمي في تراثه، فالذِّمي، بدءاً، عند الجاحظ: ((هو أذلّ من الذليل، وأقلّ من القليل، وهو الطالب الراغب في أخذ فديته، والإنعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه))(٥).

أما اليهود فقد تردد ذكرهم في مواضع متعددة من تراثه، وصنّف في الرد عليهم كتابه (الرد على اليهود)(٦)، وهو من الكتب التي ضاعت مع ماضاع من كتبه الكثيرة، واليهود هم أتباع موسى u وكتابهم التوراة، ولم يذكر الجاحظ فيما وصل إلينا من تراثه من أنبياء اليهود إلاّ موسى وهارون، حين قال:((قد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقومه وإلى جميع القِبْط(٧)، وهما أمتان: كنعاني(٨) وقبطيّ))(٩).

ويحتل موسى منزلة رفيعة في التقوى اليهودية، ولكن الأبحاث الحديثة تنفي تأليفه الأسفار والنصوص القانونية المعقدة للشريعة اليهودية، إنما وُضعت نصوص التوراة من بعد موسى بقرون، ودُوّنت وتم إقرار أسفارها بمجملها في عام ٩٠ ميلادي، إذ اعتُبِرَت أنها من كلام الله وشكّلت الكتاب المقدس المثبت لليهود الذي لن يتغير أو يضاف إليه جديد، وأخذ الكتاب المقدس مُسمى العهد القديم بين المسيحيين تمييزاً له عن العهد الجديد المتضمن للأناجيل ورسائل الرسل، إذ اعترف المسيحيون أن كلا الكتابين هما كلام الله(١٠)، أما التلمود فهو كتاب وضعه أحبار اليهود وحاخاماتهم(١١) متضمناً على الأحكام والحدود التي يحتاج إليها اليهود من الناحية العقائدية، ويتكون التلمود من المِشْنَا والجِمَارا، أما المشنا فترجع نشأتها إلى موسى وفقاً للتراث اليهودي، حيث يدعي اليهود بأنه تلقّى شريعتين إحداهما

الشريعة المكتوبة وهي التوراة والأخرى الشريعة الشفوية وهي المشنا التي تضمّ مجموعة التعاليم والتفاسير والفتاوى والوصايا التشريعية، فالمشنا هو أساس التلمود ومتنه، أما الجمارا فهي شروح وتفاسير لنصوص المشنا، ومن المشنا والجمارا تكوّن التلمود اليهودي الذي أخذ منزلة مقدسة تصل إلى منزلة التوراة أو أرفع منها عند غالبية اليهود، على الرغم من عدم تقبله من بعض الفرق اليهودية(١٢).

وقد رسم الجاحظ لليهود في كثير من المواضع صورة مشوهة عن الأصل معضدة بالتحقير والتبخيس والازدراء، نازعاً عنهم أي فضيلة تذكر، فيقول أنهم ((أقذر الأمم))(١٣)، لتأكيد سياقاته النصية وتوجيهها نسقياً، في الوقت الذي تتضاد تعاليم وأحكام كتبهم جذرياً مع هذا المعنى، فقد تشدّد الدين اليهودي وبالغ في التطهُّر من النجاسات التي لم تقتصر طبيعتها لديهم على نجاسة الإنسان بل تمتد لتشمل كل مايحيط بالإنسان من حيوان وطعام وشراب ومكان وما إلى ذلك، ((وإذا مثّلنا التشريع اليهودي بالبناء فإن الطقوس والأحكام التطهرية التي يشتمل عليها ذلك التشريع هي من هذا البناء بمثابة الأساس والدعائم))(١٤)، وقد خصص القسم السادس من المشنا المسمى طهاروت كاملاً لأحكام التطهُّر وطقوسها، وكيف يكونون أقذر الأمم وقد تزوج الرسول r منهم من دون الأمم زوجتين من زوجاته، أولاهما صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب من يهود بني النضير(١٥)، وأنزل الله سبحانه وتعالى فيها آية من ذكره الحكيم، ((عن ابن عباس: أن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله r فقالت إن النساء يعيرنني ويقلن يايهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله r: هلا قلتِ إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية))(١٦): [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ](١٧)، والثانية: ((ريحانة بنت شمعون بن زيد بن عمرو بن خنافة قرظية، وكانت من ملك رسول الله r فأعتقها وتزوجها))(١٨).

وقد تبنى الجاحظ القول بخصائص ردّها إلى اليهود كمعطى تتجلى فيه عوامل النقص في الجانب الخَلْقي والخُلُقي ومظاهر النتاج الإنساني كصفة تؤطِّر هويتهم جميعاً، عبر سرد يتمركز على أنماط قيمية تضمّ النسق النافي للآخر في تراثه وتوجهه، وأما صورهم وعقولهم فيرى الجاحظ بأنها خاصية تتناسل عبر أجيالهم لتضمّ أخلافهم مع أسلافهم لانغلاقهم على أنفسهم في المناكحة بقوله بأنهم: ((لم يضرب فيهم غيرهم، لأن مناكحهم مقصورة فيهم، ومحبوسة عليهم، فصور أولهم مؤداة إلى آخرهم، وعقول أسلافهم مردودة على أخلافهم))(١٩)، ويُعضِّد هذه الرؤية بمعنى يشفّ عن أصل حتمي يحتوي ضعف العقل والخُلُق والجمال فيهم، عبر فضاء تأويلي وتمثُّل يفترض حقيقة قيام الجوهر المثالي لليهود فيقول: ((لأن الإسرائيلي لايُزوِّج إلاّ الإسرائيلي، وكل مناكحهم مردودة فيهم، ومقصورة عليهم، وكانت الغرائب

لاتشوبهم، وفحولة الأجناس لاتُضرَب ولاتَضرِب فيهم، لم ينجبوا في عقل ولا أسر[٢٠] ولا مِلْح، وإنك لتعرف ذلك في الخيل والإبل والحمير والحمام))[٢١].

وقد كان الزواج المختلط، أي زواج اليهودي من غير اليهودية أو العكس، من الزيجات المنهي عنها في التشريع اليهودي[٢٢]، ولكن برغم تبنّي اليهود هذا التشريع معتبرين أن الزواج المختلط يضعف الجوهر المثالي لليهودية بوصفهم شعب الله المختار، لكن الواقع التاريخي اليقيني لليهود يُكذب هذا المعنى تماما، فزواج اليهود من باقي الأمم والعكس حقيقة لاشك فيها على طول العصور، وعليها يجمع جمهرة المؤرخين والانثروبولوجيين ابتداءً من كين إلى ربلي إلى كرن ٠٠٠ إلخ[٢٣].

وأما حديث اليهود فمُجَرّد، حسب الجاحظ، من أي كلام شريف أو معنى مُستحسن أو حكم أو حكمة أو حذق في صناعة، يقول: ((كان الرجل من العرب يقف المواقف، ويُسيّر عدة أمثال، كل واحد منها ركن يُبنى عليه، وأصل يتفرع منه، وهل تسمع لهم بكلام شريف، أو معنى يستحسنه أهل التجربة، وأصحاب التدبير والسياسة، أو حكم، أو حكمة، أو حذق في صناعة، مع ترادف المُلك فيهم، وتظاهر الرسالة في رجالهم))[٢٤]، وهذه المداخل التي قرأ الجاحظ بها اليهود تختلف عن الأصل وتغايره، وتُبرز رغبة عالية باستلاب أية كفاءة أو تقدير أو حظوة ضمنية تنتمي إلى النموذج الذي يكمن كعنصر أصيل في الذات اليهودية وسماتها، وقد أثبتت الدراسات العلمية تهافت أقوال الجاحظ حول اليهود بهذا الاتجاه يقيناً، فقد عني اليهود وتميزوا وأغنوا الفكر العربي ولاسيما في مجال الشعر[٢٥]، كما برعوا في الكثير من الحِرَف[٢٦] ومنها الحِرف التي تستلزم فنّاً في الصناعة كالصياغة التي لازمتهم أكثر من غيرهم من الأمم منذ عصر ماقبل الإسلام[٢٧]، كما ((عني بنو إسرائيل بالتربية عناية كبرى، وكانت للتربية لديهم قوة خاصة ، هي التي استطاعت أن تبقي عاداتهم واعتقاداتهم حية طوال العصور، رغم تشردهم في البلدان))[٢٨]، ومن مناقضات الجاحظ أنه يتضاد مع ما قرره آنفا، وذلك في فقرة كتاب الزهد من كتابه (البيان والتبيين) باختياره لبعض الأبيات الشعرية لشاعر اليهود السموأل الذي كان يُضرَب المثل به في الوفاء في منظومة التراث العربي[٢٩]، توصَّف فيها اليهود بالكرم والتسامي للعلى والجار العزيز والتناصر والشجاعه[٣٠]، وفي باب من القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز ينتقي الجاحظ أبياتاً للربيع بن أبي الحُقيق من بني النضير من اليهود تبدى فيها قضاء اليهود بالحكم العادل الفاصل وتفريقهم العادل بين الباطل والحق[٣١].

وقد أثبت الواقع التاريخي أن اليهود قد بلغوا في الشعر وفي الفن القصصي منزلة رفيعة، وكان شعرهم ونثرهم وآدابهم في صياغة الأمثال تتجه إلى موضوع واحد هو الدين وثماره الأخلاقية، في الوقت الذي لم يُقدموا من نتاج تفكيرهم للعلوم كما فعل البابليون والمصريون والإغريق، ولم يُسهموا في العلوم

السياسية واللاهوتية والفلسفة[٣٢]، يقول الجاحظ: ((إن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة كفر، والكلام في الدين بدعة، وإنه مجلبة لكل شبهة، وإنه لاعلم إلاّ ماكان في التوراة وكتب الأنبياء، وأن الإيمان بالطب، وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة، حتى أنهم ليُبهرجون المشهور بذلك، ويُحرمون كلام من سلك سبيل ذلك))[٣٣].

ويعدّ الجاحظ اليهود بعمومهم أغبياء غاوين قليلي نظر مقلدين[٣٤]، أما القول بقلة النظر والعقل فقد أخذ عبر سرد الجاحظ مدخلاً واهياً تعارض به مع نصّ القرآن، حين عدّه صفة متمركزة في العقل اليهودي عبر الإحالة إلى إرثهم الرمزي في العلاقة مع سياقات الوعيد، فينفي وعيد موسى لهم بالعذاب المُؤخر الذي يُمثل قانوناً إلهياً لكل الأديان السماوية لإثبات هذا المدخل وإعلائه، يقول: ((وكذلك وعد محمد u بنار الأبد، كوعيد موسى بني إسرائيل بإلقاء الهُلاس[٣٥] على زروعهم، والهمّ على أفئدتهم، وتسليط الموتان[٣٦] على ماشيتهم، وبإخراجهم من ديارهم، وأن يظفر بهم عدوهم، فكان تعجيل العذاب الأدنى في استدعائهم واستمالتهم وردعهم عما يريد بهم، وتعديل طبائعهم، كتأخير العذاب الشديد على غيرهم، لأن الشديد المؤخر لايزجر إلاّ أصحاب النظر في العواقب، وأصحاب العقول التي تذهب في المذاهب))[٣٧].

وقد أخبر القرآن الكريم بثبوت الوعد والوعيد المُؤخَّر لبني إسرائيل عبر موسى وبزمانه في مواطن متعددة[٣٨]، كما اشتمل العهد القديم لليهود على القول بالجزاء والحساب في أكثر من سِفْر من أسفاره[٣٩]، وتضمن التلمود أقوال عدّة تؤكد هذا المعنى وتدعمه[٤٠].

وأشار الجاحظ إلى أهم شعيرتين في الدين اليهودي باقتضاب شديد هما إقامة السبت والختان، فاليهودي عند الجاحظ من أهل النقص ونسكه التشدد في إقامة السبت، يقول: ((وجدنا لجميع أهل النقص، ولأهل كل صنف منهم نسكاً يعتمدون عليه في الجمال، ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة، ويفزعون إليه ، على قدر فساد الطباع، وضعف الأصل واضطراب الفرع، مع خُبث المنشأ، وقلّة التثبّت والتوقّف ، ومع كثرة التقلّب والإقدام مع أول خاطر ... ونسك اليهودي التشدد في إقامة السبت))[٤١]، ولم يبين الجاحظ طبيعة ذلك التشدد وحدود إقامته في السبت[٤٢]، الذي يُعد يوماً مقدساً في الحياة اليهودية، وعهداً خاصاً باليهود وعلامة بينهم وبين الرب، كما ورد في سفر الخُرُوج الذي جاء فيه: ((فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت في أجيالهم عهداً أبدياً، هو بيني وبين بني إسرائيل علامة إلى الأبد))[٤٣].

كما أشار الجاحظ إلى ثاني أهم شعيرة في الدين اليهودي وهي الختان نقلاً عن مزاعم لأطباء نصارى يدَّعي أنهم أعداء اليهود، بقوله: ((وزعم ناس من أطباء النصارى وهم أعداء اليهود، أن اليهود يختتون

أولادهم في اليوم الثامن))[٤٤]، ومن المُستغرب أن الجاحظ _ بعلمه الموسوعي _ يجهل هذه الشعيرة التي لها مكانة كبرى في اليهودية ويوردها زعماً عن آخرين، فالختان عهد وعلامة انتماء للشعب اليهودي، وردت الإشارة بذلك في سفر التكوين بالقول: ((قال الله لإبراهيم من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يُختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون للأمة عهد بيني وبينكم، ابن ثمانية أيام يُختن[٤٥] منكم كل ذكر في أجيالكم، وليد البيت، والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك، يُختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك، فيكون عهدي في لحمكم أبديا))[٤٦].

وقد تبنى الجاحظ حديثاً نبوياً يكشف عن رؤية خاصة للبنية الشعورية لليهود تجاه المسلمين، وهو قوله: ((عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله r: ((ماخلا يهودي بمسلم إلاّ همَّ بقتله))، ويقال: حدَّث نفسه بقتله))[٤٨]، وقد ثبت بأن هذا القول هو رواية لما لا أصل له في منظومة الحديث[٤٧].

كما تبدّى تمثُّل اليهود في تراث الجاحظ بالفهد والفأرة والأرضة والضّب، وهذا التمثُّل يجهر برؤيا للآخر متوصفاً بمغايرة تامة تخرجه نسقياً من المنظومة الإنسانية بسلب الذات أو محوها إلى خارج حدودها، مستجلياً رؤية المخيال الجمعي للعرب لهذه الأمة دون النصارى حيث يقول: ((الصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يايهودي٠٠٠والعامة تزعم أن الفأرة كانت يهودية سحّارة، والأرضة يهودية أيضاً عندهم، ولذلك يلطخون الأجذاع بشحم الجَزُور[٤٩]، والضّب يهودي، ولذلك قال بعض القصاص لرجل أكل ضبّاً: اعلم أنكَ أكلتَ شيخاً من بني إسرائيل، ولأراهم يضيفون إلى النصرانية شيئاً من السباع والحشرات))[٥٠]، في الوقت الذي تبدّى الشيخ اليهودي في منظومة تفسير الأحلام عند العرب عدواً يريد هلاك عدوه، بينما تبدى الشيخ النصراني عدواً يُؤمَن شرّه، والنصارى تدلّ على الخنازير لمن رآهم[٥١]، أما كتب الأمثال العربية ((فقد تطرَّقت إلى حال النصارى في اقتضاب شديد عبر أربعة أمثال، ولكنها أغفلت كلياً التعريج على اليهودية وأهلها))[٥٢].

أما النصارى فهم أتباع عيسى u وكتابهم الإنجيل، ((وتُسمى النصرانية نسبة إلى بلدة الناصرة بفلسطين موطن عيسى))[٥٣]، ويعتقد النصارى أن عيسى أسّس اتفاقاً يُعرف بالعهد الجديد بين الله والإنسان يحلُّ محلَّ الاتفاق القديم الذي كان بين الله تعالى وموسى، وبموجب الاتفاق الجديد يموت عيسى بدلا عن الخطاة ويزيل بدمه خطايا البشر[٥٤]، وكان للقرن المسيحي الأول كتب كثيرة أُلفت عنه، وأهم المصادر التي تمُتّ بصلة إلى تاريخه هي مدونات الأناجيل ورسائل الرسل في العهد الجديد، وقد بحثت هذه المصادر بدقة واستقصاء عقول باحثين وعلماء توصلوا إلى قرار مفاده أن الديانة المسيحية المبكرة

عن عيسى في العهد الجديد قد عُدلت، ومن المعروف أن عيسى لم يُدوّن تعاليمه وإنما اعتمد على تلاميذه في القيام بالتبشير بما علّمه[٥٥]، وقد شكّك الجاحظ في أصل عقيدة النصارى الناتج عبر هذا الاتجاه، مفترضاً خواء هذا الدين كقيمة مُتَقَبَّلة من نسق لايُؤمن عليه خصائص الضلال باستلهامه من معطيات مترشحة من إشكالية تضمّ عمقها التاريخي وافرازاته التالية، فيقول أن النصارى ((إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس: إثنان منهم من الحواريين بزعمهم: يوحنا ومتّى، وإثنان من المستجيبة وهما: مارقُش ولُوقش، وهؤلاء الأربعة لايُؤمن عليهم الغلط ولا النسيان، ولاتعمُّد الكذب، ولا التواطؤ على الأمور، والاصطلاح على اقتسام الرياسة، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له))[٥٦].

أما فرق النصارى فيمكن تقسيمها على قسمين رئيسين في مسألة التوحيد والاعتقاد بعيسى، قسم منها فرق حافظت على عقيدة التوحيد الأصلية لله I وأن عيسى هو عبده ورسوله، ومن أولئك فرقة أبيون وفرقة بولس الشمشاطي وفرقة أريوس وفرقة الموحدين في عصرنا الحاضر، والقسم الثاني – وهم الأغلبية الساحقة – فرق جنحت عن هذه العقيدة الأصلية واعتقدت أن في عيسى طبيعة إلهية[٥٧]، وبرغم استفاضة الجاحظ في الحديث عن النصارى فإنه لم يذكر شيئاً عن النصارى الموحدين مطلقاً.

وقد التقى النصارى مع اليهود بوجوه كثيرة في العقائد وفي السلوك[٥٨]، أما الجاحظ فقد قرنهم مع اليهود بالقول بالتشبيه للذات الإلهية، يقول: ((وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه، وهو قول معظمهم، والذي عليه جماعتهم، إلاّ من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم، فإنهم يقولون بالتشبيه والتجسيم فراراً من كثرة الشناعة، وعجزاً عن الجواب، وكفى بالتشبيه قبحاً، وهو قول يعمّ اليهود[٥٩]))[٦٠]، وباعتقادهم بالمسخ يقول: ((أهل الكتابين[٦١] ينكرون أن يكون الله تعالى مسخ قروداً وخنازير، وإنما مسخ امرأة لوط حجراً، كذلك يقولون))[٦٢]، وتعظيمهم للنار يقول: ((ويزعم أهل الكتاب أن الله تعالى أوصاهم بها، وقال: (لاتطفئوا النيران من بيوتي) فلذلك لاتجد الكنائس والبِيَع، وبيوت العبادات، إلاّ وهي لاتخلو من نار أبداً، ليلاً ولانهاراً، حتى اتُخذت للنيران البيوت والسدنة[٦٣]، ووقفوا عليها الغلاّت الكثيرة))[٦٤]، كما قرنهم في اتخاذ الحدود التي أحدثوها في دار الإسلام بقوله: ((وليس تحريم الكلام من الحدود القائمة في كتبهم، ولكن الجَاثَلِيق[٦٥] ورأس الجالوت[٦٦] لايمكنهما في دار الإسلام حبس ولاضرب، فليس عندهما إلاّ أن يُغرما المال ويُحرما الكلام، على أن الجاثليق كثيراً مايتغافل عن الرجل العظيم القدر، الذي له من السلطان ناحية))[٦٧].

واستفاض الجاحظ في بيان الاختلافات التي يتّسمون بها كقيمة تستجلي هويتهم وبخاصة العقائدية والنفسية، ولم تكن العلاقة بين اليهود والنصارى جيدة منذ البداية، فمنذ القرن الأول الميلادي كان موقف اليهودية الذي يُحدد رسمياً من الحاخامات الذين رفضوا الادعاء بأن عيسى هو المسيح المُخلِّص[٦٨]، أما

رأي النصارى باعتقادات اليهود فقد بيّنه الجاحظ بقوله بأنهم زعموا ((أن كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور، مالم يتعمد الباطل ويعاند الحق، فإذا صاروا إلى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة))[٦٩].

وقد بين الجاحظ منازعتهم في المسيح وغلوّهم المتناقض في تقدير قيمته تبخيساً وإعلاءً فقال: ((إن اليهود نازعت النصارى في المسيح، فلجّ بهما القول حتى قالت اليهود إنه ابن يوسف النجار، وإنه لغير رُشده، وإنه صاحب نِيْرَنْج[٧٠] وخدع ومخاريق، وناصب شِرك، وصياد سمك، وصاحب شصّ وشبك، فما يبلغ من عقل صياد وربيب نجار؟ وزعمت النصارى إنه رب العالمين، وخالق السماوات والأرضين، وإله الأولين والآخرين، ولو وجدت اليهود أسوأ من هذا القول لقالته فيه، ولو وجدت النصارى أرفع من ذلك القول لقالته فيه))[٧١]، وقد تضادت آراء اليهود والنصارى في عيسى وتناقضت تناقضاً كبيراً، فاتهمه اليهود واتهموا والدته باتهامات مشينة لأقصى الحدود، في حين اعتقد أغلب النصارى بأُلوهيته[٧٢]، يقول الجاحظ: ((ولو جهدت بكل جهدك، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح، لما قدرت عليه، حتى تعرف به حدّ النصرانية، وخاصة قولهم في الإلهية وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولا، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه، وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية[٧٣]، ولذلك صرنا لانعقل حقيقة النصرانية، كما نعرف جميع الأديان))[٧٤].

وتبدّى النصارى أقرب إلى عوام العرب من بين اليهود والمجوس بقول الجاحظ: ((صارت النصارى أحبّ إلى العوام من المجوس وأسلم صدوراً عندهم من اليهود، وأقرب مودّة، وأقلّ غائلة، وأصغر كفراً، وأهون عذاباً))[٧٥]، ويردّ الجاحظ هذه الرؤية لأسباب تنتمي إلى مكونات علائقهم بالعرب أو سماتهم الفكرية والمعنوية أو رؤيا المخيال الجمعي، التي أخذها مفتتحاً للتنديد بالنصارى وتعطيل هذه القيمة لصالح اليهود في كتابه (الرد على النصارى)[٧٦]، الذي يقول فيه: ((والكلام إذا حُرِّك تشعَّب، وإذا ثبت أصله كثرت فنونه، واتسعت طرقه، ولولا ملالة القارئ، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع مايعرض أتمّ للدليل وأجمع للكتاب، ولكنا إنما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط))[٧٧].

أما أهم أسباب الجاحظ لقرب النصارى إلى العرب فتتلخص بقوله: بأن اليهود كانوا جيران المسلمين وعداوة الجيران تشبه عداوة الأقارب بشدة التمكّن والحقد، وكانت النصارى لبُعد ديارهم لايتكلفون طعن المسلمين ولايثيرون الكيد لهم ولايجمعون على حرب، فكان هذا أول سبب غلّظ القلوب على اليهود وليّنها على النصارى، ثم ماكان من أمر هجرة المسلمين إلى الحبشة ولواذهم بها ماحببهم إلى عامة المسلمين، ومن شأن الناس محبة من يصطنع إليهم خيرا، وأمر آخر وهو من أقوى أمورهم وهو تأويل آية يقول

الجاحظ أن فيها غلطت العامة ونازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واستمالت بها القلوب كحجة، وهي قوله تعالى[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى] [٧٨]، ويرى الجاحظ أن الله تعالى لم يقصد بهذه الآية هؤلاء النصارى، وإنما قصد بحيرا الراهب والرهبان الذين خدمهم سلمان الفارسي، ومن الأسباب الأخرى أنه لما جاء الإسلام كان ملوك العرب رجلين: غساني ولخمي وهما نصرانيان، وكانت العرب تدين لهما وتؤدي الأتاوة إليهما كتعظيم راجع إلى تعظيم دينهما، وكان ذلك أيضا للنصارى دون اليهود، ومن الأسباب أن العرب كانت لها تجارة إلى الشام وينفذ رجالها إلى ملوك الروم، وتهاجر إلى الحبشة وتأتي إلى النجاشي وافدة فيكرمهم ويعرف لهم الأقدار، وذلك في رحلة الشتاء والصيف المعروفة، وقيصر والنجاشي نصرانيان، فكان ذلك للنصارى أيضا دون اليهود، كما أن النصرانية كانت منتشرة بين العرب، وجاء الإسلام ولم تكن اليهودية بغالبة على قبيلة من قبائل العرب، فعطف قلوب العرب على النصارى ماكان فيهم من المُلك والقرابة وأن فيهم من العرب الكثير، وأن بنات الروم وَلَدْنَ لملوك الإسلام، وأن من النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين فتوصفوا عند العرب كعقلاء وفلاسفة حكماء ولم يجدوا ذلك في اليهود، ومما عظّمهم في القلوب أن منهم كُتَّاب السلاطين وفرّاشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة، بينما وجدوا اليهود صبّاغين أو دبّاغين أو حجّامين أو قصّابين أو شَعّابين[٧٩]، فلما رأت العوام اليهود والنصارى توهَّمتْ أن دين اليهود مقارنة بالأديان كصناعتهم مقارنة بالصناعات وأن كفرهم أقذر الكفر، ويقول الجاحظ ونحن لم نخالف العوام بكثرة أموال النصارى وقيام ملكهم وأن ثيابهم أنظف وصناعتهم أحسن، وإنما خالفنا في التفريق مابين الكفرين والفرقتين بشدة العناد واللجاجة والإرصاد لأهل الإسلام، مع لؤم الأصول وخبث الأعراق[٨٠]، وذلك تعضيداً وتعزيزاً لموقف السلطة الحاكمة وتدعيماً لقرارات المتوكل بالتنكيل بأهل الذمة[٨١]، كشفت عن ذلك رسالة من الفتح بن خاقان وزير المتوكل أرسلها للجاحظ لحثّه على إتمام الكتاب والتعجيل به، ومما جاء فيها: ((إن أمير المؤمنين يجدّ بكَ، ويهشّ عند ذكركَ، ولولا عظمتكَ في نفسه لعلمكَ ومعرفتكَ، لحال بينكَ وبين بُعدكَ عن مجلسه، ولغصبكَ رأيكَ وتدبيركَ فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه، وقد كان ألقى إليّ من هذا عنوانه، فزدتكَ في نفسه زيادة كفّ بها عن تجشيمكَ، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنّة على كتاب الرد على النصارى، وافرغ منه وعجّل به إلي، وكُن من جدا به على نفسه تنال مشاهرتكَ، وقد استطلقته لما مضى، واستلفت لك لسنة مستقبلة، وهذا مما لم تحتكم به في نفسك))[٨٢]، ولم يكن يكفي المتوكل حثّ العلماء على الحطّ من النصارى بل لجأ إلى محاربة ميل العامة إليهم وتعاطفهم معهم، عبر قلم الجاحظ الموجّه الخفي لسياسته، فرسالة الرد على النصارى

تهدف إلى تغيير صورة النصارى في أذهان العامة، وهي تتميز عن سائر الكتب السجالية التي وضعها المسلمون بأنها تستهدف النصارى أنفسهم بطريقة أصيلة(٨٣).

ولقد بيّن الجاحظ بعض سمات النصارى بوصفها قيماً تدعم سياق النفي الممنهج عبر سرد يفتقد الدقة التاريخية أحياناً، ويشوبه التضليل المتعمد أحياناً للنيل منهم جميعاً، مستدعياً مكونات دلالية ينتهك فيها الجوهر الشخصي فيهم لكسره عبر أنموذج يتمثل مناحي القبح المفترضة كنمط متمركز يُؤطِّر هوية النصارى، ليس في هذا الكتاب فحسب وإنما في مواضع أخرى من مصنفاته، فـ ((الجاحظ لم يسلم في تطبيق استراتيجيته الحوارية العقلية من انحرافات ومغالطات تمثّلت في هجومه على النصارى بصفتهم جماعة أو فئة دينية وتحقيرهم، بدل حصر حجاجه في خطابهم وآرائهم التي يتبنونها أو يدعمونها، وهو إجراء إن كان يخدم المحاجج في الانتصار لرأيه على حساب الرأي المخالف، إلاّ أنه انتصار يتسم بالعنف في التعامل مع الهوية الدينية المغايرة والسعي إلى كسرها بكسر أصحابها))(٨٤).

وقد ناقش الجاحظ بعض الآراء التي تتضاد مع حقائق أقرها القرآن الكريم عبر مقولات نسبها للنصارى وقد قالوا بها، ومقولات أخبر عنها وهي ليست عندهم إذ قال: ((ليعلم من قرأ هذا الكتاب، وتدبَّر هذا الجواب، إنّا لم نغتنم عجزهم، ولم ننتهز غرّتهم، وإن الإدلال بالحجة والثقة بالفلج والنصرة، هو الذي دعانا إلى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم، وألاّ نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له مُنتبه، أو يُشر إليه مشير، وألاّ يوردوا فيما يستقبلون، على ضعفائنا ومن قصر نظره منا، شيئاً إلاّ والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد مُذلت به))(٨٥)، وفي هذا تجاوز في الحجة واستباق مرفوض، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لايعرفون من مواطن تأخذ في ظاهرها إشكالية بتعارض المرويات التاريخية مع ما أخبر به القرآن الذي دعَّم الجاحظ بنصه تلك الاحتجاجات المفترضة، مع مافيه من خطر التشكيك للضعفة من المسلمين ولغيرهم حول مصداقية نص القرآن، إذ لم يستطع الجاحظ أن يُقدم ردوداً مقنعة كلياً على احتجاجاته المفترضة تلك، وهذا ماتنبه له ابن قتيبة معاصره(٨٦).

ومن سمات النصارى التي أوردها الجاحظ كثرة العدد، فيرى الجاحظ أن الأمة قد استعظمت مصيبتها بكثرة أعدادهم التي غلبوا بها الأمم على الرغم مما في دينهم من حدود تحدّ النسل، يقول: ((والعجب أن كل جاثليق لاينكح، ولايطلب الولد، وكذلك كل مَطْرَان(٨٧)، وكل أسْقُف(٨٨)، وكذلك كلّ أصحاب الصوامع من اليعقوبية، والمقيمين في الديارات والبيوت من النسطورية، وكل راهب في الأرض وراهبة، مع كثرة الرهبان والرواهب(٨٩)، ومع تشبّه أكثر القسيسين(٩٠) بهم في ذلك، ومع مافيهم من كثرة الغزاة، ومايكون فيهم مما يكون في الناس، من المرأة العاقر والرجل العقيم، على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها، ولاعلى أن يتزوج أخرى معها، ولاعلى التسرّي عليها(٩١)، وهم مع هذا

قد طبقوا الأرض، وملئوا الآفاق، وغلبوا الأمم بالعدد وبكثرة الولد، وهذا مما زاد في مصائبنا، وعظمت به محنتنا))[٩٢].

ولقد أمعن الجاحظ في التنديد بالنصارى وتسفيههم وتجريدهم من أية حكمة أو بيان أو بُعد رويّة كعلامة تنطوي على جوهر النقص المضمر فيهم كجماعة دينية، على الرغم مما عُرف عنهم من التفوق والبراعة في أمور عدّة كالطب والكتابة والترجمة والشعر[٩٣] – على سبيل المثال لاالحصر– فيقول: ((ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولابيان، ولابُعد رويّة، إلاّ حكمة الكفّ من الخرط والنجر والتصوير، وحياكة البِزْيون[٩٤] لأخرجتهم من الأدباء، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء))[٩٥].

أما رحمتهم فقليلة وأما قلوبهم ففاسدة، يقول: ((ومما يدلّ على قلّة رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم، والخصاء أشدّ المُثلة، وأعظم مارُكّب به إنسان، ثم يفعلون ذلك بأطفال لاذنب لهم، ولادفع عندهم، ولانعرف قوما يُعرفون بخصاء الناس حيث ماكانوا إلاّ ببلاد الروم والحبشة، وهم في غيرها قليل، وأقل من القليل، على أنهم لم يتعلموا إلاّ منهم، ولاكان السبب في ذلك غيرهم، ثم خصوا أبناءهم وأسلموهم في بيعهم))[٩٦]، ويشهد التاريخ أنه كانت عادة النصارى في القرون الوسطى أن يخصوا أولادهم ((بطريقة الوجر أو السلّ، فيتم الخصي دون التعرُّض للقضيب، وكانوا يقفونهم على خدمة بيوت العبادة ليكونوا رهباناً، فقد كرهوا لرهبانهم إحبال نسائهم لأن الموجور أو المسلول يقضي إربه دون الإحبال))[٩٧]، يقول الجاحظ: ((ومن أهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العبادة، ويجعله سادناً، كصنيع الروم، إلاّ أنهم لايُحدثون في القضيب حدثاً، ولايتعرضون إلاّ للأنثيين، كأنهم كرهوا لأولادهم إحبال نسائهم ورواهبهم فقط، فأما قضاء الوطر وبلوغ اللَّذة فقد زعموا أنهم يبلغون في ذلك مبلغاً لايبلغه الفحل))[٩٨].

ويخص الجاحظ النصارى بالرياء العجيب والزهد الظاهر يقول: ((وللنصارى خاصة رياء عجيب، وظاهر زهد))[٩٩]، وأنهم بعد اتخاذهم النصرانية ديانة صاروا جبناء مغلوبين بعد أن كانوا هم الغالبين يقول: ((إنا قد علمنا أن الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس، وكانت الحروب بينهم سجالاً، فلما صارت لاتدين بالقتل والقتال والقَوَد والقصاص، اعتراهم مثل مايعتري الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلّفاً، ولما خامرتْ طبائعهم تلك الديانة، وسرتْ في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم، خرجوا من حدود الغالبية إلى أن صاروا مغلوبين))[١٠٠].

كما يخصّهم باللؤم الباطن والقذر والسماجة فيقول: ((والنصراني وإن كان أنظف ثوبا، وأحسن صناعة، فإن باطنه ألأم وأقذر وأسمج، لأنه أقلف، ولايغتسل من الجنابة، ويأكل لحم الخنزير، وامرأته

جُنُبٌ لاتطهر من الحيض، ولامن النفاس، ويغشاها في الطمث، وهي مع ذلك غير مختونة[١٠١]))[١٠٢]، نعم لقد خصَّ الجاحظ نساء النصارى بالقذارة الشخصية كسمة أصيلة تستدعي اللخن والعفن في أرحامهن عند قوله: ((ويزعمون أن الكثرة في الأولاد إنما تكون من العفن واللخن، وعلى قدر كثرة المائية وقلّتها، فذهبوا إلى أن أرحام الروميات والنصرانيات أكثر لخناً ورطوبة، لأن غسل الفروج بالماء البارد مراراً في اليوم، مما يُطيّب الأرحام، وينفي اللّخن والعَفَن، ويزعمون أن المرأة إذا كان فرجها نظيفاً، وكانت معطّرة قوية المُنّة قلّ حملها))[١٠٣].

ولم يستثن الجاحظ علماء النصارى وعقلاءهم وسدنتهم ورهبانهم من استهجانه، محيلاً إلى معطيات تستجلي صفات ينسبها إليهم يُجردهم فيها من الفضائل العليا، عبر سياق قائم على قمع ثقافي يستهدف تراتبية مقصودة في نفي النصارى لمنح ازدرائهم حجة وشاهد لترسيخ نسق النبذ الممنهج ومساندته والتسليم به، أما علماؤهم وعقلاؤهم فيقول بأنهم ((ليسوا بمُتحاشين من الكذب الصرف، والجراءة على البُهتان البحت، وقد تعودوا المكابرة حتى دربوا بها الدرب الذي لايُفطن له، إلاّ ذو الفراسة الثابتة، والمعرفة الثاقبة))[١٠٤]، وأما سدنتهم فمازالت تحتال للناس جهة النيران يقول: ((ومازالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القمامة[١٠٥] ببيت المقدس بمصابيحها، وأن زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نار، في بعض ليالي أعيادهم))[١٠٦]، وفي رهبانهم يقول الجاحظ: ((إذا كان النصراني فسلاً نذلاً مُبغضاً للعمل، ترهَّبَ ولبس الصوف، لأنه واثق أنه متى لبس وتزيّا بذلك الزي وتحلّى بذلك اللباس، وأظهر تلك السيما، أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه، ويكفوه، ثم لايرضى بأن ربح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة))[١٠٧].

ودفعه التحيز ضد النصارى إلى تعضيد استهجانهم باستهجان دينهم، نافياً اشتماله على مزاجر أُخروية وحدود دنيوية تستحثهم على مجانبة الفساد وإيثار الصلاح، في سياق يكشف عن مظهر يناقض الحقيقة، لتدعيم منهج الاستلاب القيمي لكل مايمتّ للنصارى بصلة فيقول: ((وهم مع شرارة طبائعهم، وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر كنار الأبد في الآخرة، وكالحدود والقَوَد والقصاص في الدنيا[١٠٨]، فكيف يجانب مايفسده، ويؤثر مايصلحه من كانت حاله كذلك))[١٠٩]، في حين تبنّى النصارى وبشدة الاعتقاد بالنار الأبدية والعذاب الأبدي[١١٠]، بل أثبتت الدراسات المحكمة حول اعتقادات النصارى الجوهرية ((أن جهنم كما هي عند المسلمين مكان للعذاب كذلك يعتقد النصارى))[١١١].

ويعضّد الجاحظ استهجانهم واستهجان دينهم عندما يقرنهم ويقرنه بالزنادقة والزندقة، يقول: ((ودينهم _ يرحمك الله _ يضاهي الزندقة، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة، والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملّة قطّ أكثر زندقة من النصارى، ولا أكثر متحيراً أو مترنحاً

منهم وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة، ألا ترى أن أكثر من قُتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره، هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى، على أنك لو عددت اليوم أهل التهمة لم تجد أكثرهم إلاّ كذلك))[١١٢].

أما لفظ زنديق فقد أُطلق على معان مختلفة أولها وأهمها الإيمان بماني[١١٣]، وهذا ماعناه الجاحظ تماما، وقد ظهر ماني في فارس – وقيل في العراق في فترة احتلال الساسانيين للعراق – زمان الملك سابور بن أردشير من بعد عصر عيسى u الذي أقرّ ماني بنبوَّته[١١٤]، وكانت المانوية ديانة ذات نزعة تلفيقية أخذتها من كل الثقافات التي عاصرتها كالمسيحية والأغريقية ماعدا الزرادشتية التي كان ماني يناصبها العداء، ولكن المسيحية تصدّتْ للمانوية لأن المانوية وإن كانت تُمجد المسيح فإنها تعده إنساناً وعبداً لله وتنفي كونه المخلص والإله كما يعتقد أغلب النصارى، ولذلك هاجمهم افراهاط الحكيم في عام ٣٤٦ ميلادية ومنذ ذلك التاريخ صار النصارى ينعتون أتباع ماني بالزنادقة[١١٥]، لكن الجاحظ يقول عن النصارى: ((وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصفح، وذكرهم للسياحة، وزرايتهم على كل من أكل اللحمان، ورغبتهم في أكل الحبوب، وترك الحيوان، وتزهيدهم في النكاح، وتركهم لطلب الولد، ومديحهم للجاثليق والمطران والأسقف والرهبان بترك النكاح وطلب النسل، وتعظيمهم الرؤساء، علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسباً، وأنهم يحنون إلى ذلك المذهب))[١١٦]، وفي حقيقة الأمر أن المانوية هي التي أخذت هذه التعاليم من المسيحية التي سبقتها بقرون[١١٧]، ولكن الجاحظ لاتعنيه الحقيقة التاريخية بقدر مايعنيه ربط المظاهر مع سياق الهدف الذي يقوم عليه نصّه، ومنهجة المعطيات لإنتاج أنموذج يتمثّل تبرير المدخل الموجّه لنسقه بتبني القول به كوجهة حتمية وقولبته لخدمة المضمون المنتقى.

وقد انتظم كتاب الجاحظ (الرد على النصارى)، مع ماله من خصوصية ذات سياق سياسي، مع كتب كثيرة في الرد على النصارى، وليس معنى ذلك أن هؤلاء قد هاجموا الإسلام بالضرورة فانبرى لهم المسلمون للردّ عليهم، بل هو فن كلامي عبر عن خصائص الفكر في الحضارة العربية الإسلامية، وقد كتبت أكثر الردود في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكان للمعتزلة نصيب الأسد فيها[١١٨].

خاتمة:

تجلّت المركزية الدينية في النظرة النابذة للآخر الذمي _ وغير الذمي _ في بعض مرويات التراث العربي عبر تصورات أخذت أبعادها من سياقات ثقافية عديدة، على الرغم من الدعوة القرآنية للحوار معه وهدايته، فالإسلام دعوة مُرسلة للعالم أجمع، قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ][١١٩]، وجوهر هذه الدعوة الرحمة للعالمين كلهم بلا استثناء، قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ] [١٢٠]، ولكن علوم الدين والمرويات الجغرافية والتاريخية والأدبية وتمركزاتها

المنطوية على الأخذ بآيات نزلت في ظروف خاصة ولفئات محددة من أهل الكتاب – وإن كانت أكثرية – أخذت سياقاً ضاغطاً على النظرة الجمعية والمخيال الذهني للمسلمين، تمظهرت فيها صورة أتباع الأديان الأخرى مشوبة بالدونية، وقد ساهمت مرويات الجاحظ الذي كان من أوائل من تحدّث عنهم في ترسيخ سياقات الازدراء، وتثبيتها، كمُرتكز وإطار مرجعي سردي أصيل يُشير إلى هوية الآخر الديني، وتوجيه الأذهان والأخيلة لصورة مشوهة عنه وعن آرائه، عبر خلق تصورات مليئة بالتحقير والنفي الذي تبنى فكراً عقيماً من شأنه توليد مشاعر عداء وحقد مُضاد من الآخر المنتهكة صورته بتكرار، وهذا خواء لايؤدي إلى حثه لاعتناق وجهة نظر الطرف الطارد المزدري، وكان من المفروض أن يسعى لاستقطابه إلى الدين القويم عبر منهج حيادي موضوعي يحترم إنسانيته بعيد عن التعالي والتسقيط الخَلْقي والخُلُقي للارتقاء معاً، بدلاً من التمييز السلبي الذي صار يعاني منه الإسلام والمسلمون في عصرنا الراهن في البلاد الغربية(١٢١).

الهوامش:

(١) تجب الجزية في آخر الحَوْل أو في أوّله، ولاتُؤخذ من صبي ولا امرأة ولامجنون ولاجزية على فقير عاجز عن أدائها ولا على شيخ فان أو زَمِن ولا أعمى ولامريض لايُرجى برؤه وإن كانوا موسرين، وأقل مايُؤخذ في الجزية دينار وأكثره ماوقع عليه التراضي، ينظر: أحكام أهل الذمة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حققه وعلق عليه، أبو براء يوسف بن أحمد البكري وأبو أحمد شاكر بن توفيق العازوري، ج١، ص ١٢٣– ١٦١ .

(٢) أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي أضواء على الأوضاع الإجتماعية والقانونية، حسن الزين، ص٨٢ .

(٣) ينظر: معاملة غير المسلمين في الإسلام، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ص ١٨٠ – ١٨٢، (بحث الدكتور علي الصوّا) .

(٤) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، عبدالمجيد الشرفي ، ص١٩ .

(٥) رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، ج٣، ص٣٢٠، وينظر: ج٤، ص ١٨٢ .

(٦) ذكره ياقوت في معجم الأدباء، ج١٦، ص١٠٨ .

(٧) القبط: كلمة يونانية الأصل تُطلق على سكان مصر قديماً .

(٨) بلاد كنعان هي التخوم الواقعة في الجنوب من سورية، ولايعرف التاريخ سكاناً في فلسطين قبل الكنعانيين، ولم يعرف حتى الآن زمن استيطانهم فيها، ولم تعثر المكتشفات العلمية حتى اليوم إلى مايشير على وجود أحد من البشر قبلهم هناك، اليهود عبر التاريخ، سليمان ناجي، ص ٤٥، ٤٦ .

(٩) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، ج٣، ص١٩٦ .

(١٠) موسوعة تاريخ الأديان، تحرير، فراس السواح، المترجمون، عبدالرزاق العلي، محمود منقذ الهاشمي، مساهمة: فراس السواح، ج٥، ص ١٠١، ١٨٥، (اليهودية، تأليف: John B. Noos) .

(١١) الحبر: رئيس الكهنة عند اليهود، أما الحاخام فهو المعلم الروحي لهم .

(١٢) ترجمة متن التلمود (المشنا)، ترجمة وتعليق، د. مصطفى عبدالمعبود منصور، ج١ ، ص ٩-١١، (مقدمة المترجم) .

(١٣) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣١٦ .

(١٤) ترجمة متن التلمود (المشنا)، ج٦، ص ١١، (مقدمة المترجم) .

(١٥) ينظر: كتاب جُمَل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، حققه وقدم له، د. سهيل زكّار، د. رياض زركلي، ج٢، ص ٧٨ .

(١٦) كتاب أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، اعتنى به، وليد الزكري، ص٢١٨ .

(١٧) سورة الحجرات، ١١ .

(١٨) كتاب جمل من أنساب الأشراف، ج٢، ص ٩١ .

(١٩) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٢٧٢ .

(٢٠) الأسر: شدّة الخُلُق .

(٢١) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣١٦ .

(٢٢) ينظر: الكتاب المقدس وهو أسفار العهدين القديم والجديد مترجمة من اللغات الأصلية، ترجمة، فاندايك والبستاني، العهد القديم، سِفْر الخُرُوج، ٣٤: ١٥، ١٦، ص ١٤١، سفر التَثْنِيَة، ٧: ٢- ٤، ص ٢٨٢، سفر يَشُوع، ٢٣: ١٢، ١٣، ص ٣٦٤، سفر نَحَمْيا، ١٣: ٢٣ – ٢٨، ص ٧٤٥، ٧٤٦ .

(٢٣) للدلالة التاريخية والعلمية، ينظر :اليهود انثروبولوجيا، د.جمال حمدان، ص ١٥٤ – ١٨١ .

(٢٤) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٢٧١ .

(٢٥) ينظر: أهل الذمة في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، محمد حسب الله علوان القريشي، (رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠٠٨ م)، ص ٥٧ – ٦٠ .

(٢٦) ينظر: اليهود في العالم العربي، دراسة تاريخية في قضايا الهوية – الاندماج – القدس، د. زبيدة محمد عطا، ج١، ص ١٧٢ – ١٨٢ .

(٢٧) أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وسن حسين محيمد الغريري، (رسالة ماجستير، كلية التربية بنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢ م)، ص ٢٢٢ .

(٢٨) التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، د. عبدالله عبدالدائم، ص ٢٩ .

(٢٩) وكان السموأل قد بذل ابنه قتيلاً حفاظاً على أمانته، بعد رفضه تسليم سلاح قد استودعه عنده الشاعر أمرؤ القيس إلى الحارث الغساني الأكبر، وقد هدده الأخير بقتل ولده الذي أخذه أسيراً مقابل السلاح، ولم يستجب السموأل له، ينظر في قصته: الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، راجعه وأعد فهارسه، محمد عبدالمنعم العريان، ص ٦١، ١٦٢ .

(٣٠) ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص١٢٢، وينظر: ج٤، ص٤٢ .

(٣١) ينظر: نفسه، ج١، ص١٥٦ .

(٣٢) أديان العالم، حبيب سعيد، ص١٧٦ .

(٣٣) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣١٤ .

(٣٤) نفسه، ج٣، ص ٣٣٧ .

(٣٥) الهُلاس: هزال بما يشبه السلّ .

(٣٦) الموتان: الموت .

(٣٧) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٢٧٢، ٢٧٣ .

(٣٨) ينظر على سبيل المثال: سورة الأعراف، ١٥٦، سورة طه، ٧٣ – ٧٦، سورة غافر، ٤١ – ٤٣ .

(٣٩) ينظر على سبيل المثال: سفر التثنية، ٣٢: ٣٥، ص ٣٢٣، سفر إشَعْيَاء، ١٣: ٦– ٤، ص ٩٦٨، سفر صَفَنْيَا، ١: ١٤ – ١٨، ص١٢٧٦، ١٢٧٧، سفر مَلَاخِي، ٤: ١، ص ١٣٠٠ .

(٤٠) ينظر على سبيل المثال: ترجمة متن التلمود (المشنا)، ج٤، ص ٣١٨ .

(٤١) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، ج١، ص ١٦٠، ١٦١ .

(٤٢) في يوم السبت ينقطع اليهود عن العمل ويتفرغون للعبادة فقط، وقد ورد القول بالنهي عن العمل مطلقاً به في العهد القديم، وتردد ذكر السبت في مواضع متعددة منه، وصنف أنواع نشاطات معينة من العمل إذا مارسها اليهودي يكون قد وقع تحت عقوبات إثم تدنيس السبت، أما قوانين التلمود فقد جاءت صارمة جداً تجاه الأعمال الرئيسة التي يُدان بسببها اليهودي بانتهاك السبت، وقد استفاض في تفصيل حدود تلك الأعمال وتداعياتها ونواهيها وأضاف إليها وبالغ جداً لحدّ الإلزام بذبيحة الخطيئة على من يقصف أظافره بأظافره أو بأسنانه أو من ينتف بيده أو بأسنانه شعره أو شاربه أو لحيته أو من تجدل شعرها أو تكحّل عينيها، ووضعت عقوبة الرجم حتى الموت حدّا لمن يُدنس يوم السبت عمدا بالقطع، ينظر على سبيل المثال: سفر الخروج، ١٦: ٢٢ – ٣٠، ص ١١٢، ٢٠: ٨ – ١٠، ص ١١٧، سفر العدد، ٥: ٣٢– ٣٦، ص ٢٣١، ٢٣٢، سفر المُلُوك الثاني، ٤: ٢٣، ص ٥٦٦، سفر نحميا، ١٠: ٣١، ٣٣، ص ٧٣٩، سفر إشعياء، ١: ١٣، ص ٩٥٤، سفر حِزْقِيَال، ٤٦: ٣، ٤، ص ١١٩٩، سفر هُوشَع، ٢: ١١، ص ١٢٣٠، وينظر في قوانين يوم السبت وأحكامه: ترجمة متن التلمود (المشنا)،

ج٢، ص ٣١ – ١٢٩، وفي تفصيل شريعة السبت وتدابيرها في المجتمع اليهودي ينظر: الحياة اليهودية بحسب التلمود، إعداد القمص روفائيل البرموسي، ص ٨٩ – ١١١ .

(٤٣) الكتاب المقدس، العهد القديم، ٣١: ١٦، ١٧، ص ١٣٦ .

(٤٤) الحيوان، ج٧، ص١٥ .

(٤٥) وللختان في اليهودية طقوس ومراسيم خاصة لإقامته ورد تفصيلها في التلمود الذي تشدد في عدم تأخيرها عن اليوم الثامن إلاّ لأسباب تتعلق بمرض الطفل حصراً .

(٤٦) الكتاب المقدس، العهد القديم، ١٧: ٩– ١٤، ص٢٣، ٢٤ .

(٤٧) ينظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد الزَّيْلَعِي، اعتنى به، سلطان بن فهد الطّبيشي، ج١، ص١٤٥، حديث رقم ٤٢٨ .

(٤٨) البيان والتبيين، ج٢، ص٢٣ .

(٤٩) الجزور: مايصلح لأن يُذبح من الإبل .

(٥٠) الحيوان، ج٦، ص٣٠٨، ٣٠٩، ينظر: ج٦، ص ٤٧ .

(٥١) ينظر: معجم تفسير الأحلام، محمد بن سيرين، عبدالغني النابلسي، ص ١١٤٧، ١١٤٨، ١٢١٥، ١٢١٦ .

(٥٢) الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، د. محمد توفيق أبو علي، ص ٢٢٧، ينظر: ص ٢٢٨، ٢٢٩ .

(٥٣) الملة والنحلة في اليهودية – المسيحية – الإسلام، د. حمدي عبدالعال، ص ٨٠ .

(٥٤) يسوع المسيح في العهدين القديم والجديد دراسة تاريخية مقارنة، ماجدة حسو منصور، ص٦٩، ٧٠ .

(٥٥) موسوعة تاريخ الأديان، ج٥، ص٢٠٩، (المسيحية، تأليف: John B. Noos) .

(٥٦) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣٢٨ .

(٥٧) موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، د. سارة بنت حامد بن محمد العبادي، ص ٢١١ – ٢١٧، ٤٧٠ .

(٥٨) ينظر: المسلمون والنصارى التعامل من منظور إسلامي، د.عبدالرحمن عُطْبة، ص ٥٣ – ٦٨ .

(٥٩) بينما خصّ الجاحظ اليهود باعتقادهم بالجبر جميعاً بلا استثناء دون ذكر النصارى، ينظر: رسائل الجاحظ: ج٣، ص ٣٤٥ .

(٦٠) نفسه، ج٣، ص ٣٥١ .

(٦١) اليهود والنصارى، وسمُوا أهل الكتاب وخاطبهم القرآن بذلك لامتلاكهم كتاب مُحقّق .

(٦٢) الحيوان، ج٤، ص٦١ .

(٦٣) السدنة: خدام وحراس المعابد .

(٦٤) الحيوان، ج٤، ص٢٩٣ .

(٦٥) الجاثليق: ويسمى أيضا البطريرك، وهو رئيس ملتهم ومقدم الأساقفة فيهم، وقد بين الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أن من شروط الجاثليق الواجبة لاختياره لهذه المرتبة في المسيحية: امتداد القامة وعظم اللحية والزهد في الرئاسة، ويقول الجاحظ بأنه لابد للجاثليق من قناع ومظلة وبَرْطُلّة _ والبرطلة هي القلنسوة التي تدار عليها العمامة – ومن عكاز وعصا، ينظر: ج١، ص ١٠٠، ج٣، ص ٥٩ .

(٦٦) من هنا رأس الجالوت: أمير الطائفة اليهودية والممثل السياسي والمدني لهم، ولابد لمن يتولى هذه الرتبة فيهم أن يكون من نسل داود عليه السلام ٠

(٦٧) الحيوان، ج٤، ص١٦ ٠

(٦٨) ينظر: موسوعة تاريخ الأديان، ج٥، ص١٨٩ ٠

(٦٩) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٢٤ ٠

(٧٠) النيرنج: من أنواع السحر ٠

(٧١) مجموع رسائل الجاحظ، حقق نصوصه وعلق عليها، د٠ محمد طه الحاجري، ص٥١ ٠

(٧٢) ينظر في تفصيل أقوال واعتقادات اليهود في عيسى ووالدته: موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، ص٢٥–١٣٤،وينظر في تعظيمه وتعظيم والدته عند النصارى: ص١٣٥–٢٢٦ ٠

(٧٣) النساطرة والملكانية واليعقوبية: أكبر فرق النصارى قديما ٠

(٧٤) رسائل الجاحظ، ج٣، ص ٣٢٤ ٠

(٧٥) نفسه، ج٣، ص٣٠٨ ٠

(٧٦) وللجاحظ رسالة أخرى في الرد على النصارى بعنوان (الرسالة العسلية)، وهي من مصادر الجاحظ التي ضاعت من تراثه، ينظر: المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة، د٠ محمد عبدالله الشرقاوي، ص ١٢ ٠

(٧٧) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٤١ ٠

(٧٨) المائدة، ٨٢ ٠

(٧٩) الشعَّاب: الذي يقوم بإصلاح الصدع أو الشق ٠

(٨٠) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٠٩ – ٣١٧ ٠

(٨١) أمر المتوكل بإلزام أهل الذمة بارتداء ملابس خاصة لايحيدون عنها هم ونسائهم ومماليكهم – وهذا الإلزام يسمى الغِيار وقد أحدثه عمر بن الخطاب في عهده ابتداء –، ونهاهم عن ركوب الخيل والبراذين

والاقتصار على ركوب البغال والحمير، كما أمر بعدم الاستعانة بهم في أعمال الدواوين، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين وأن لايعلمهم مسلم، وبأخذ العشر من منازلهم، كما ألزمهم أن يضعوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة، وبتسوية قبورهم مع الأرض، ينظر: تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي البغدادي، علّق عليه ووضع حواشيه، خليل المنصور، ج٢، ص٣٤٢، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٩، ص١٧١ – ١٧٤، ١٩٦ ٠

(٨٢) معجم الأدباء، ج١٦، ص٩٩، ١٠٠ ٠

(٨٣) أحوال النصارى في خلافة بني العباس،د٠جان مُوريس فييه، نقله إلى العربية،حسني زينه،ص١٤٦، ١٤٧ ٠

(٨٤) خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، د٠ محمد مشبال، ص ٣٠٩ ٠

(٨٥) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٤٩، ٣٥٠ ٠

(٨٦) ينظر: تأويل مختلف الحديث، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق، محمد محيي الدين الأصفر، ص ١١٢ ٠

(٨٧) المطران: رتبة دينية فوق الأسقف ودون البطريرك، والمطران هو القاضي الذي يفصل في الخصومات الشخصية ٠

(٨٨) الأسقف: رئيس الكهنة ومتولي إدارة الأبرشية، ورتبته تقع بين المطران والقسيس ٠

(٨٩) الراهب: متعبد النصارى ممن تخلى عن الزواج وملذات الدنيا واعتزل الناس إلى الأديرة مكرسا نفسه للعبادة وأعمال البر، وقد انفرد النصارى بالرهبنة من بين الأديان السماوية معتبرين ترك الزواج فضيلة تقرب من الله، والرهبنة أمر ابتدعه النصارى وليس له من التشريع الإلهي إذن مطلقا، وقد ظهرت في أواخر القرن الثالث الميلادي وتكرست بقوة منذ القرن الرابع، وكان أول من حثّ عليها بولس الرسول، موسوعة الزواج والعلاقة الزوجية في الإسلام والشرائع الأخرى المقارنة، د٠ملكة يوسف زِرار، ج١، ص٧٧، ٧٨، وينظر في سبب نشوء الرهبنة وتاريخها في الديانة النصرانية: موسوعة تاريخ الأديان، ج٥، ص٢٧٩ _ ٢٨٢، الزواج في الشرائع السماوية والوضعية، هند المعدللي، ص ١١٥ _ ١١٨ ٠

(٩٠) القس: مرتبة دينية تتوسط بين الأسقف والشماس، والقس هو القارئ الذي يقرأ الإنجيل والمزامير، ويصلي بالجماعة المسيحية ويفتي في أمورهم الدينية ٠

(٩١) كان التعدد في الزواج مقررا في الديانة اليهودية ولم تنسخه الديانة المسيحية، إذ لم يرد أي ذكر لهذا الأمر في الأناجيل المعتمدة، إنما هو أمر أقره رجال الدين، فشاع بين النصارى على اختلاف طوائفهم القول بتحريم التعدد دون نص ناسخ من العهد الجديد وقالوا أن الجمع بين زوجتين زنا ظاهر، في الوقت الذي أقرّت المسيحية في بدايتها ما أقرته ديانة موسى في التعدد، ولكن الأمر انتهى من بعد عيسى بقرون

بالإقرار رسميا بإفرادية الزوجة ومنع التعدد أو التسري، ومع ذلك ظل قائما في بعض الأمم المسيحية مثل الحبشة، موسوعة الزواج والعلاقة الزوجية في الإسلام والشرائع الأخرى المقارنة، ج١، ص ٩٧، المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، إعداد، زكي علي السيد أبو غضة، ص ٢٨٩، ٢٩٢ ٠

(٩٢) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٢٢ ٠

(٩٣) ينظر: أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية، ص ٢٨، ١٦٦، ١٨٤ – ١٨٩، ٢٠٥ – ٢١٢، أهل الذمة في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، ص ٦٥ – ٦٧ ٠

(٩٤) البزيون: السندس، أو رقيق الديباج ٠

(٩٥) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣١٤ ٠

(٩٦) نفسه، ج٣، ص٣٢٢ ٠

(٩٧) الرق ماضيه وحاضره، عبدالسلام الترمانيني، ص٩٣ ٠

(٩٨) الحيوان، ج١، ص ١٠٧ ٠

(٩٩) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٢٥٢ ٠

(١٠٠) نفسه، ج٤، ص ١٢٦ ٠

(١٠١) الأقلف: غير المختون، وكان الختان فريضة يؤديها النصارى الأوائل، وكان عيسى عليه السلام قد اختتن في اليوم الثامن كأوامر التوراة الذي أُرسل ليكملها لا لينقضها كليا، وقد رُفع عيسى والختان موجود وجميع النصارى يختتنون على شريعة موسى، إنما تم إلغائه من بعده بقرون من قبل بولس الرسول، وقد التزم بهذا الإلغاء طائفة النساطرة والملكانية عدا اليعاقبة ونصارى الحيرة فهم يختتنون، بل شمل الختان حتى نسائهم، المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام: ص ٢٣٤ – ٢٣٨، أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية، ص ٩٩ ٠

(١٠٢) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٢٣ ٠

(١٠٣) الحيوان، ج٤، ص٩٦ ٠

(١٠٤) نفسه، ج٦، ص١٢٨ ٠

(١٠٥) كنيسة القمامة: هو الإسم العربي الأصلي لكنيسة القيامة ٠

(١٠٦) الحيوان، ج٤، ص٢٩٦، ويقول الجاحظ في موضع لاحق من الكتاب: ((وقد تعرف مافي عجايز النصارى وأغمارهم من الإفتتان بمصابيح كنيسة قمامة))، ج٦، ص ١٢٨ ٠

(١٠٧) نفسه، ج١، ص١٦١ ٠

(١٠٨) بينما ذكر الجاحظ اشتمال كتبهم على حدود دنيوية منها الحبس والضرب، في كتابه الحيوان مناقضا بذلك كلامه السابق، ينظر: ج٤، ص ١٦ ٠

(١٠٩) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٢٣ ٠

(١١٠) ينظر: الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل المسيح حسب البشير مَتَّى، ٢٥: ٤١، ص٤٨، رؤيا يوحنا اللاهوتي، ١٤: ١١، ص٤٢٠ ٠

(١١١) يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، د٠ فرج الله عبد الباري، ص٣١٦، وينظر: ص٢١١ – ٢١٦، ٣١٦ – ٣١٨ ٠

(١١٢) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣١٥، ٣١٦ ٠

(١١٣) ينظر: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، د٠عبدالرحمن بدوي، ص ٤٤ ٠

(١١٤) الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبدالكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق، عبدالعزيز محمد الوكيل، ج٢، ص ٤٩ ٠

(١١٥) الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، محمد عبدالحميد الحمد، ص ٢٨، ٣٣ ٠

(١١٦) رسائل الجاحظ، ج٣، ص٣٢١ ٠

(١١٧) ينظر: الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، ص ٢٨، ٤٠ ٠

(١١٨) ينظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر،ص ٢٢، ٢٠٨، ٢٠٩ ٠

(١١٩) سبأ، ٢٨ ٠

(١٢٠) الانبياء، ١٠٧ ٠

(١٢١) ينظر في القول بنظرة الغرب للدين الإسلامي: العنصرية وصدام الحضارات، د٠ أسامة نبيل، صبري سعيد، ص٤٠، (بحث د٠ أسامة نبيل) ٠

المصادر:

- **القرآن الكريم ٠**
- أحكام أهل الذمة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حققه وعلّق عليه، أبو براء يوسف بن أحمد البكري، أبو أحمد شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٧ ٠
- أحوال النصارى في خلافة بني العباس، د٠ جان مُوريس فييه، نقله إلى العربية، حُسني زينه، دار المشرق، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٠ ٠
- أديان العالم، حبيب سعيد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، د٠ت ٠
- الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، د٠ محمد توفيق أبو علي، دار النفائس، بيروت _ لبنان، ط١، ١٩٨٨ ٠

- أهل الذمة في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، محمد حسب الله علوان القريشي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠٠٨ .
- أهل الذمة في العصر العباسي دراسة في أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية، وسن حسين محيمد الغريري، رسالة ماجستير، كلية التربية بنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢ .
- أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي أضواء على الأوضاع الإجتماعية والقانونية، حسن الزين، بيروت _ لبنان، ط١، ١٩٨٢ .
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١٠ .
- تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر بن جرير الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، د.ت.
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي البغدادي، علّق عليه ووضع حواشيه، خليل المنصور، دار الزهراء، إيران – قم، ط١، ٤١٢٩ق .
- تأويل مختلف الحديث، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق، محمد محيي الدين الأصفر، المكتب الإسلامي، بيروت، مؤسسة الإشراق، قطر – الدوحة، ط٢، ١٩٩٩ .
- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي، اعتنى به، سلطان بن فهد الطبيشي، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٣ .
- التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، د.عبدالله عبدالدائم،ط٤، ١٩٨١ .
- ترجمة متن التلمود (المشنا)، ترجمة وتعليق، د. مصطفى عبدالمعبود سيد منصور، دار طيبة – الجيزة، ط١، ٢٠٠٨ .
- الحياة اليهودية بحسب التلمود، مراجعة، نيافة الأنبا ايسوذورس، إعداد: القمص روفائيل البرموسي، دار نوبار، دير السيدة العذراء _ برموس، ط١، ٢٠٠٣ .
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط١، ٢٠١٣ .
- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، د.ت.
- خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حجاجية، د. محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط١، ٢٠١٥ .
- الرق ماضيه وحاضره، عبدالسلام الترمانيني، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر، ١٩٧٩ .

- الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر، محمد عبدالحميد الحمد، دار الطليعة الجديدة، سوريا – دمشق، ط١، ١٩٩٩ .
- الزواج في الشرائع السماوية والوضعية، هند المعدللي، دار قتيبة، دمشق – سوريا، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٢ .
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، راجعه وأعد فهارسه، محمد عبدالمنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت_ لبنان، ط٣، ١٩٨٧.
- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، عبدالمجيد الشرفي، دار المدار الإسلامي، بيروت _ لبنان، ط٢، ٢٠٠٧ .
- كتاب أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، اعتنى به، وليد الزكري، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠١٠ .
- كتاب جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، حققه وقدم له، د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، دار الفكر، بيروت _ لبنان، ط١، ١٩٩٦ .
- الكتاب المقدس، وهو أسفار العهدين القديم والجديد مترجمة من اللغات الأصلية، ترجمة، فاندايك والبستاني، نداء الرجاء، شتوتغارت _ المانيا، ١٩٩١ .
- مجموع رسائل الجاحظ، حقق نصوصه وقدّم لها وعلّق عليها، د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣ .
- المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق ودراسة، د. محمد عبدالله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١ .
- المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، إعداد، زكي علي السيد أبو غضّة، دار الوفاء، ، مصر، ط١، ٢٠٠٣ .
- المسلمون والنصارى التعامل من منظور إسلامي، د. عبدالرحمن عُطْبَة، دار الأوزاعي، لبنان – بيروت، ط١، ٢٠٠٠ .
- معاملة غير المسلمين في الإسلام، الجزء الأول، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمَّان، ١٩٨٩ .
- معجم الأدباء، لياقوت، راجعته وزارة المعارف العمومية، دار المأمون، د. ت.
- معجم تفسير الأحلام، محمد بن سيرين، عبدالغني النابلسي، رتبه معجميا، باسل البريدي، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٨ .
- الملة والنحلة في اليهودية – المسيحية – الإسلام، د. حمدي عبدالعال، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٨٩ .

- الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبدالكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق، عبدالعزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، دار الإتحاد العربي، القاهرة، ١٩٦٨ ٠
- من تاريخ الإلحاد في الإسلام، تأليف وترجمة، د٠ عبدالرحمن بدوي، سينا للنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٩٩٣ ٠
- موسوعة تاريخ الأديان تحرير، فراس السوَّاح، المترجمون، عبدالرزاق العلي، محمود منقذ الهاشمي، مساهمة، فراس السوَّاح، دار علاء الدين، دمشق _ سورية، ط١، ٢٠٠٩ ٠
- موسوعة الزواج والعلاقة الزوجية في الإسلام والشرائع الأخرى المقارنة، د٠ ملكة زِرار، ج١، الناشر: الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠ ٠
- موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، د٠ سارة بنت حامد بن محمد العبادي، مكتبة الرشد، ناشرون، المملكة العربية السعودية – الرياض، ط١، ٢٠٠٥ ٠
- يسوع المسيح في العهدين القديم والجديد دراسة تاريخية مقارنة، ماجدة حسو منصور، الناشر: بيت الحكمة، العراق – بغداد، ط١، ٢٠١١ ٠
- اليهود انثروبولوجيا، د٠ جمال حمدان، كتاب الهلال، العدد ٥٤٢، فبراير، ١٩٩٦ ٠
- اليهود عبر التاريخ، سليمان ناجي، قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق _ سوريا، بيروت _ لبنان، ط١، ٢٠٠٧ ٠
- اليهود في العالم العربي دراسة تاريخية في قضايا الهوية _ الإندماج _ القدس، د٠ زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، ط١، ٢٠٠٣ ٠
- يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، د٠ فرج الله عبدالباري، دار الآفاق العربية، د٠ت ٠